وليم ل . هيدجز

عمل وليم ل . هيدجز فى كلية جاوتشر منذ عام ١٩٥٦ ، ثم أصبح أستاذاً لكرسى اللغة الإنجليزية منذ عام ١٩٦٧ . وقبل ذلك قام بالتدريس فى جامعتى هارفارد وويسكونسن ، وعمل أستاذاً زائراً فى جامعة كاليفورنيا ؛ وقد حصل الأستاذ هيدجز على درجة الليسانس فى الآداب من كلية هارفرفورد ، وعلى درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد . وكان التاريخ هو المجال الرئيسى الذى ركز فيه دراساته قبل التخرج ؛ فى حين أصبحت الحضارة الأمريكية شغله الشاغل فى سنوات ما بعد التخرج . وكان عنوان رسالته للدكتوراه «واشنطن إيرفنج والتاريخ» . وقد نشر مقالات فى مجلات «أمريكا» و«آكسنت» ، و«الرواية فى القرن التاسع عشر» ، و«يوميات تاريخ الأفكار» ، و «الفيلم الفصلية» ، و«سجلات أكاديمية ويسكونسن» . وهو مؤلف كتاب «واشنطن إيرفنج : دراسة أمريكية ١٨٠٢ – ١٨٣٢» الذى نشر فى سلسلة مطبوعات كلية جاوتشر وصدر عن مطبعة جامعة جونز هوبكنز .

(٥) واشنطن إيرفنج : الكتاب الوصفى لجوفرى كريون الجنتلمان

بقلم : وليم ل . هيدجز

إن « الكتاب الوصفى لجوفرى كريون الجنتلمان » ليس بأفضل كتب واشنطن إيرفنج ، لكنه أكثرها شهرة وشعبية . ظهر أول الأمر فى الولايات المتحدة على هيئة سلسلة كتيبات أو ملازم فى عام ١٨١٩ . وكانت إنجلترا هى البلد التى كتب فيها إيرفنج القصص والمقالات واللقطات التى يتكون منها الكتاب . وقد شحن مادة الكتاب بالبحر جزءاً وراء الآخر إلى أحد إخوته فى الوطن لكى يقوم بنشرها . وقبل أن يتم نشر كل الأجزاء كانت الدوريات الإنجليزية قد بدأت فى السطو على بعض محتوياتها . ولكى يحمى إيرفنج نفسه أصدر نصف كتابه تقريباً فى طبعة فى إنجلترا على مسئوليته الخاصة . وإذا كان الناشر قد تخلى عن المؤلف فإن الكتاب نجح بحيث دفع بجون مرى الناشر اللندنى المرموق إلى تبنيه وإصدار « الكتاب الوصفى » كاملاً فى جزأين .

تلك كانت بداية أمجاد إيرفنج : فمنذ ذلك الوقت أصبح قادراً على أن يعتمد فى عيشه على قلمه فقط ، وهى سابقة لم يحققها أمريكى قبله . وكان الترحيب الكاسح الذى لقيه فى بريطانيا هو الذى يهم بالدرجة الأولى . وكان الأمريكيون فى ذلك الوقت لا يزالون يعيشون تحت السلطان الأدبى لإنجلترا . ولم يكن الكتاب الأمريكيون فى موقف يحسدون عليه ؛ لأن أصحاب المطابع فى الولايات المتحدة كانوا يطبعون الكتب الإنجليزية بدون دفع حقوق التأليف إلى مؤلفيها . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الجمهور الأمريكى لأربعين سنة بعد إعلان

الاستقلال يفترض أن الكتب التى من تأليف كتاب أمريكيين لا يمكن أن تكون على مستوى رفيع جدًّ. وهى النغمة التى سادت الكتاب البريطانيين الذين قاموا بعرض الكتب فى الدوريات ، وغالباً ما كانت نغمة عدائية ومتعالية . وعلى أية حال فإنه ظهر أخيراً «الكتاب الوصفى» الذى رأى النقاد البريطانيون فى مؤلفه الأمريكى كاتباً أصيلاً . وكان هذا الحكم سبباً فى تشجيع مواطنى إيرفنج على أن يأخذوه على محمل أكثر جدية . وعندما عاد إلى الولايات المتحدة بعد اثنى عشر عاماً أصدر فيها ستة كتب كان استقباله يشبه إلى حد كبير استقبال بطل قومى .

وقبل «الكتاب الوصفى» لم يكن واثقاً من أصول صنعته . فقد اندفع فى عملية طبع كتاباته فى مطلع العشرينيات من عمره واكتسب شهرة فى مدينة نيويورك كواحد من مجموعة المفكرين الشبان المتعجلين . وفى عام ١٨٠٧ شارك فى إصدار الدورية الفكاهية «سالمجوندى» مع أحد إخوته وكاتب شاب يدعى جيمس كيرك بولدنج . وكانت المجلة تقدم تعليقات هازلة على السلوك والثقافة والتيارات السياسية المعاصرة التى تتميز بها البيئة المحلية ، وفى الوقت نفسه كانت تسخر من تقاليد المقالات التى تنشر فى الدوريات ، وهى التى استقت منها مادتها أصلاً . وبعد عامين ظهر الكتاب الساخر «تاريخ نيويورك» الذى يتظاهر إيرفنج أنه من تأليف عالم أثرى تافه يدعى دايدريتش نيكربوكر ، وهذا الكتاب كان بمثابة قمة المرحلة التى أدت به بعد ذلك إلى الاحتراف .

وعلى الرغم من أن عائلته لم تكن ضد فكرة وجود كاتب فيها فإن إمكاناتها وإرادتها لم تكن كافية لمساندته . ولقد تدرب للاشتغال بالقانون لكنه لم يجد فيه بغيته ، ولم يكن أيضاً سعيداً بالاشتغال بالاستيراد الذى طوره أبوه وإخوته على الرغم من أنه ساعد فى هذا المجال من حين لآخر .

وفى عام ١٨١٥ رحل إلى إنجلترا لكى يبدأ إقامته المطولة فى أوربا . لكنه ووجه بعد وصوله بفترة وجيزة للغاية بمأزقين حرجين تمثلا فى الإفلاس الكامل لفرع شركة أسرته فى ليفربول والمرض الخطير الذى أصاب أخاه بيتر الذى كان يدير الفرع .

وقد بدأ عمل إيرفنج فى «الكتاب الوصفى» بعد ذلك بعامين كمهرب من تجارب مثل تلك التى مر بها فى ليفربول فى مكتب الأسرة التجارى . وهو العمل الذى عبر عنه بقوله : «إنه أسلوب معيشى من أجل قتل الروح» . لكن الفكرة الأمريكية التقليدية التى تقول - إن

الأدب ليس سوى وظيفة مهذبة لكنها غير لائقة – هذه الفكرة جعلته يحجم عن الكتابة لمدة طويلة ، وكان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره عندما بدأ «الكتاب الوصفى» فى الظهور .

وربما كان من سخرية الزمن أن إحساسه بعدم الاستقرار الذى انعكس على صوت جوفرى كريون الخافت الموحى بالتقلب الهادئ والسخرية بالنفس – هذا الإحساس هو السبب فى نجاح «الكتاب الوصفى» وكانت الكوميديا التى تحتوى عليها «سالمجوندى» و«نيكربوكر» من النوع المحتشد بالطاقة البكر . وبلورت بوضوح خصائص معينة أساساً للتجربة الأمريكية أكثر مما فعل «الكتاب الوصفى» . لكن أسلوب كريون برشاقته السلسة ودعابته الكامنة قد استطاع على الفور أن يثير متعة البريطانيين بصفة عامة ؛ كما نجح بصفة مطلقة فى اكتساب الإعجاب فى وطنه لدرجة أن أجيالاً من تلاميذ المدارس فى الولايات المتحدة دربوا على تقليده . إن أسلوبه شائع ومألوف ، صحيح أنه أسلوب فصيح أساساً إلا أنه لم يكن أكاديمياً أو معقداً ، فقد كان مغرماً باستخدام الأسماء والأفعال الشائعة عند الإنجليز والأمريكيين . إنه أسلوب متوازن دون أن يبدو متوتراً ، يجرى فى تلقائية عندما يستخدم الاستعارة ذات الإيحاءات الخصبة . لم يلجأ إلى التصنع أو البلاغة المبالغ فيها بحيث يوحى الأسلوب بأن إيرفنج لم يعمد أساساً إلى الجانب الأدبى وهو الاتجاه الذى لا نجده فى الأدب الأمريكى فى الفترة ما بين ١٧٧٦ و ١٨٢٠ .

كانت موهبة إيرفنج الرئيسة أقرب إلى الكاريكاتير منها إلى الأسلوب الأدبى الفخيم . وإذا كان قد مكث فى الولايات المتحدة فلابد أن موهبته هذه كانت ستلقى قيوداً أقل ، لكنه كان على بعد ثلاثة آلاف ميل من الأنماط الاجتماعية التى خبرها جيداً . وعلى الرغم من أنه كان يكتب أساساً لجمهور أمريكى – فإنه أدرك جيداً أن عمله هذا سوف يفحصه القراء الإنجليز بكل تأكيد – وكان فى أعماله السابقة قد سخر بأسلوب لاذع ليس فقط من المهاجرين المتواضعين مثل عائلته هو ، بل من الطبقات الأرستقراطية الهولندية القديمة التى استقرت فى نيويورك . لكن عندما تقدمت به السن وأصبح أقل ثقة فى نفسه فى إنجلترا فإنه أصبح أكثر حرصاً .

وبالنسبة للقارئ الإنجليزى فإن «الكتاب الوصفى» لا يقدم له من الجديد إلا القليل . يحيط كريون نفسه بشذرات شعرية ونثرية مقتطفة من الكتاب الإنجليز المشهورين والمغمورين على حد سواء ، وهو يستخدمها كأدلة وإيضاحات فى الملاحظات الهامشية وفى النص نفسه .

وفى الواقع فإن معظم الكتاب يدور حول الأدب : نجد مثلاً «حانة رأس الخنزير البرى فى إيست تشيب» التى يسميها كريون «بحث شكسبيرى» ، أو القطعة المصاحبة لها بعنوان «ستراتفورد – أون – أفون» ، أو «الشاعر الملكى» وهى لقطة تعيد إلى الحياة قصيدة روائية طويلة كتبها جيمس الأول ملك أسكتلندا فى أثناء سجنه فى قصر وندسور .

وفى فصل «فن تأليف الكتب» غلب كريون النعاس فى مكتبة المتحف البريطانى ورأى فى كابوس كتاباً يستعيرون مضامينهم من أعمال لكتّاب سابقين غامضين ، وهى لقطة مغرقة فى شطحات الخيال وجدت لنفسها امتداداً فى لقطة أخرى بعنوان «الطبيعة المتغيرة للأدب» يرثى فيها لمجلد صغير وقعت عليه يده فى المكتبة الصغيرة الملحقة بمقبرة وستمنستر متأملاً فيما يفعله مرور الزمن فى مشاهير الأدب .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه حتى عندما يتوقف عن الكلام عن كاتب أو عن كتاب قديم – فإن كريون يذكر القارئ الأدب البريطانى المبكر : ففى لقطة «مقبرة وستمنستر» على سبيل المثال يقدم جولد سميث أو آديسون فى رحلة إلى الريف متشبهاً فى ذلك إلى حد ما بمحرر «الإسبكتاتور» فى زيارته للسير روجر دى كفرلى . ومن المؤكد أن صوته يشبه إلى حد كبير النبرة التى استخدمها آديسون وجولد سميث فى كتاباتهما . وربما كان هذ هو السبب – إلى حد ما – الذى أكسب إيرفنج الاحترام بصفته أول مثقف أمريكى تمكن من ناصية أسلوب النثر الإنجليزى العادى .

إن «الكتاب الوصفى» لا يتحدى إنجلترا . فالجانب الفكاهى من الشخصية الإنجليزية الذى صوره كريون وأبرزه – يبلور مارآه الإنجليز عندما خلقوا لأنفسهم صورة جون بول . إن بول هو الصورة المبالغ فيها للولاء لإنجلترا ، صورة أصابها بعض العمى والإقليمية . وفى أسوأ حالاتها فإنها «بديل أو اعتذار عن الانحياز وتضخم الذات» أو «عن الانفجار غير المنطق للعاطفة بسبب التفاهات» ، ومع ذلك فلها سحرها ، ويخفف من غلوائها بصفة عامة صفات مثل الإخلاص والشجاعة والصراحة . يبدو جون بول فى «الكتاب الوصفى» بصورة للجنتلمان الإنجليزى القح ، وعلى المستوى الرمزى يمثل الأمة كلها . يقول عنه كريون : «إن السر فى الأمر كله أن جون عنده من الأفكار والميول العظيمة ما يحب أن يحميه ويرعاه ؛ فهو يرى أنه من الضرورى لكبرياء أسرة عريقة وشريفة أن تكون ذات اهتمامات متعددة ، وأن تضحى من أجل أولئك الذين يعتمدون عليها . وهكذا فهى تضحى جزئيًّا من أجل كبريائها وجزئيًّا لحنوها

على الآخرين . ولقد جعل جون قاعدة أن يمنح المأوى والرعاية لخدمة الذين أحيلوا إلى المعاش » .

هناك شيء من جون بول فى معظم الإنجليز الذين نقابلهم فى « الكتاب الوصفى » . إن السيد المبجل بريسبردج – مثلاً – الذى زار كريون ضيعته الريفية فى إجازة عيد الميلاد والذى أصبح موضوعاً لعدة لقطات – هذا السيد كان تنويعة على هذا النمط أو تهذيباً له . و« كمتعصب متطرف بلاسبب منطقى فى سبيل الاتجاه القديم » يعتقد السيد المبجل أنه « لا يوجد وضع أكثر تشريفاً ويمكن أن يحسد عليه الإنسان بالفعل – من ذلك الذى يتمتع به الجنتلمان الريفى فى رعاية أراضيه » يرى كريون أن هذا الجنتلمان العجوز شخصية شاذة متقلبة الأهواء إلى حد ما ، لكنه على أية حال كان متعاطفاً إلى حد كبير مع رغبته فى الاحتفاظ بالخصائص المحيطة بالإجازة مثل اقتناء الزهور ، وإقامة المظال ، وتبادل آنية الجعة المبهجة ، وحفلات عيد الميلاد التنكرية ، والألعاب القديمة مثل « الاستغماية » و« حدوة الفرس البرى » .

بالطبع فإن السيد المبجل بريسبردج يعيش فى غير زمانه ، إنه عودة خيالية – إلى حد كبير – إلى عهد أقرب إلى الإقطاع . وعلى العموم فإن بقايا الماضى الإنجليزى هى التى تجذب عين كريون أكثر من جذب الحاضر الإنجليزى لها ، وهو الحاضر الذى لا يجد « الكتاب الوصفى » ما يقوله بخصوصه إذا ما قورن بالأبعاد التى نجدها فى كتاب هوثورن « وطننا القديم » أو كتاب إيمرسون « آثار إنجليزية » اللذين كتبا فى الجيل التالى .

إن غرام إيرفنج بإنجلترا القديمة ربما كان السبب الذى جرد النقاد من أسلحتهم فى تقبلهم للكتاب مما أدى إلى نجاحه . لكن لولا المزايا التى نجدها فى لقطات مثل « ريب فان وينكل » و « أسطورة البقعة الناعسة » واثنتين أو ثلاث من اللقطات الشخصية الأخرى ما كان الكتاب جديراً بالقراءة ككل ؛ فى حين أنه استحق هذه الجدارة بسبب حب الاستطلاع الذى تجسد فى كريون لمعرفة إنجلترا ، وهو الحب الذى عكس رغبة أمريكية خاصة تتميز بالإلحاح العاطفى .

أما لقطة « الكاتب يتحدث عن نفسه » فتظهر « الكتاب الوصفى » على أنه عبارة عن حصيلة من الملاحظات التى جمعها كريون فى أثناء رحلاته بالخارج ، لكن إيرفنج لم يثق تماماً بالهيكل الأساس الذى احتوى بناء الكتاب . ولابد أنه أدرك أنه لكى يستحوذ على قرائه كان عليه أن يستخدم من حين لآخر أداة درامية أكثر بلاغة وتأثيراً من مجرد وجود كريون وحده.إننا نقرأ فقط لقطات قليلة قبل الالتقاء بقصة عن أمريكا بدون أى اعتذار أو تبرير من المؤلف ،

مثل قصة «ريب فان وينكل» التى بدلا من أن تنسب إلى كريون – فإنها تقدم على أساس أنها من «تأليف دايدريتش نيكربوكر ونشرت بعد موته». هناك ثلاث قصص فى الطبعة الأصلية «للكتاب الوصفى» ليست لها سوى علاقة واهية أو ليست لها علاقة على الإطلاق برحلة كريون إلى إنجلترا. وهذه القصص تم تطويلها بعض الشيء فيما بعد. أما ما عدا ذلك فالكتاب على أية حال ملتزم بالشكل الذى سبق أن أقره المؤلف فى أول الأمر. ومع تطور شخصية كريون فإن وحدة الاهتمام والشعور تنشأ لكى تعوضنا عن المواقف العرضية التى يلجأ إليها إيرفنج وتخلخل من بناء كتابه لدرجة أننا فى النهاية نريد قراءة «ريب فان وينكل» و«أسطورة البقعة الناعسة» كما لو كانت من القصص التى يسردها كريون بدلاً من نيكربوكر، أو على الأقل من القصص التى تمس كريون شخصيًّا فى معظم الأحوال.

ومثل الكثير من الذين سبقوه فى كتابة المقالات فى دوريات القرن الثامن عشر فإن كريون ليس متزوجاً أو شابًّا؛ لكن فى حين أن العزوبية كانت ببساطة الخلفية التى تشكل انعزال المستر سبكتاتور واستقلاله كملاحظ للسلوك الإنسانى – فإنها فى حالة كريون ترتبط بالميل إلى الترحال موحية بالقلق و«التشرد» والوحدة: فهو يضرب على الوتر المثير للشجن منذ فترة مبكرة. إن سرده لعبور الأطلنطى يتحول إلى تأمل فى الكوارث. فلا يفكر إلا فى العواصف البحرية والسفن الغارقة. وعندما ترسو السفينة فى ليفربول فإنه يرقب التئام الشمل بين زوجة شابة وزوجها البحار المصاب إصابة مميتة والذى عاد إلى وطنه لكى يموت. وعند وصوله إلى اليابسة يقول كريون: «لقد خطوت على أرض أجدادى، لكننى شعرت أننى كنت غريباً على تلك الأرض».

هذا ليس بحنين عادى للوطن؛ لأن العملية لم تكن فى نظره أكثر من رحلة إلى إنجلترا للسياحة العادية. وكان قد وصف نفسه من قبل بأنه عاشق للمناظر الموحية، ومهتم «بالأماكن النائية، والأحياء غير المطروقة، والبقع الجانبية... الأكواخ ومناظر الطبيعة، والخرائب الغامضة» أكثر من اهتمامه بالمناظر والمشاهد المشهورة.

وقد كشفت جولته فى إنجلترا عن نفسها تدريجاً كرغبة ملحة لا واعية فى الحصول على النظام والاستقرار. إنه يجد ما يبحث عنه فى «الأكواخ النظيفة ذات الأشجار المشذبة والعشب الأخضر المنسق». يقول عن مناظر الريف الإنجليزى: إنها مرتبطة فى العقل بأفكار النظام والهدوء ومبادئ الوقار المستقرة، كذلك هى مرتبطة بحكمة الشيوخ وروح التبجيل»

ومن خلال الالتزام بالتقاليد فإن جول بول والمبجل بريسبردج يمنحان كريون ثقة فى النفس كانت تنقصه بالفعل . وتمثل منازلها القديمة الرحبة هياكل مقدسة يئوب إليها المسافر الذى أنهكه الترحال .

ويرى أيضاً أن الثقافة الأدبية كانت بمثابة الأساس الذى نهض عليه استقرار الحياة الإنجليزية . لقد ربطت الحاضر بالماضى ومنحته معنى . وبينما يجول فى ستراتفورد – آبون– آفون فإن مشاهد مسرحيات شكسبير تمر أمام مخيلته وكأنها تتسامى ، بل تغير طبيعة المدينة نفسها : فهو يتعجب من «موهبة الشاعر الفريدة ، ومن قدرته على نشر وإشاعة سحره العقلى على وجه الطبيعة ذاتها ، ومن منحه الأشياء والأماكن سحراً وشخصية ليسا لها أصلاً ، ثم يحول هذا العالم المادى الملموس إلى دنيا الخيال المطلق» وربما كان هذا أول تعبير لما عرف بعد ذلك بالاتجاه الهروبى فى الأدب الذى ساد فى الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب الأهلية ، وكان جزءاً من الثقافة التى اصطلح على تسميتها بالتقاليد المهذبة ، وهى الاتجاه الذى قاوم بصلابة وإصرار نمو الواقعية والطبيعية . وكان إغراء هذا الاتجاه الأمريكى فى عام ١٨٢٠ فى وجه الميل الجارف للحكم على الأدب بمعايير أخلاقية ونفعية صارمة إغراء مفهوماً . كان كريون يميل للسخرية من المواطن البورجوازى بصفته متسلقاً للسلم الاجتماعى ، لكنه فى شخصيته مثل وايم روسكو المؤرخ المرموق ورجل البنوك فى ليفربول فإنه يجد مثالاً رائعاً «للاتحاد بين التجارة والاهتمامات الفكرية» إنه نموذج مرتبط بصفة خاصة بالولايات المتحدة تلك «البلاد الشابة المنهمكة فى العمل» ، وهو نموذج تسلل إلى الأدب والثقافة من خلال «الساعات والمواسم التى تختلس من عملية الجرى اللاهث وراء الاهتمامات الدنيوية» .

ومن الواضح أن كريون لم يشعر بالألفة تماماً مع ما أسماه «بحقائق الحاضر الفجة» فى الولايات المتحدة . ولكى نقدر قيمته علينا أن نتخيل البلاد التى ترعرع فيها ، وهى بلاد تفتقر نسبيًّا إلى الشخصية القومية كما تتمثل فى الآداب والفنون الجميلة ، أو فى التاريخ المتبلور ذى المعنى . كانت البلاد التى تطغى فيها الاعتبارات العملية على التطلعات الثقافية ، والتى طالما سخر منها الأوربيون كبلاد متخلفة فكريًّا . ويرد كريون الاستهزاء بتركيزه الأضواء على «الغرور المتضخم الذى أصاب الكثيرين من الرحالة الإنجليز» إلى أمريكا .

وفى مقالته عن «الكتّاب الإنجليز يكتبون عن أمريكا» يوضح المرارة التى يشعر بها أبناء بلده من جراء النقد الأوربى لهم . وهو يسخر أيضاً من وجهة النظر العلمية المزيفة لبافون وغيره

من الأوربيين الذين يقولون : إن الحياة الحيوانية ستندثر فى أمريكا بما فيها الإنسان . وسخرية كريون تنبع أساساً من التظاهر بقبول وجهة النظر هذه : يقول كريون : إنه ذاهب إلى إنجلترا لكى يرى « الجنس العملاق » الذى تسبب هو فى « انحطاطه » . لكن المبالغة ربما تخفى خوفاً من أن هناك بعض الحقيقة فى هذه النظرية .

وعلى أية حال فإنه من خلال كريون أصبح إيرفنج أول كاتب فى سلسلة الكتاب الأمريكيين الكبار عندما أصّل قضية التناقض بين أمريكا بكل كآبتها وبساطتها وطلاقتها وجدتها وبين الحياة فى أوربا كما يراها متراكمة بفعل «كنوز الزمن المتجمعة» . ولقد تكلم جيمس فينيمور كوبر ونثنائيل هوثورن وهنرى جيمس بوضوح عن المشاق التى يعانى منها الكاتب الأمريكى فى مجتمع خال من الآثار الكبيرة والأعمال الفنية ، من الطقوس والرموز التقليدية ، ومن المؤسسات العريقة والعادات التى تثير اهتمام الكتاب عندما يلمسون سطح الحياة فى أوربا .

كان هناك إحساسٌ متزايدٌ بالمسحة القحلة التى تعترى المنظر الأمريكى وخاصة بعد عام ١٨٢٠ مما ساعد على تحول الكتاب المولودين فى أمريكا إلى التاريخ ، وهو الاتجاه الذى شجعه النموذج الذى ضربه السير وولتر سكوت الذى ناقش مع إيرفنج الإستراتيجية الأدبية « للكتاب الوصفى » فى أثناء إعداده له . وكان هوثورن ووليم جيلمور سيمز وجون ب . كينيدى وغيرهم قد استمدوا من التاريخ المادة الزاخرة بالصور والمواقف . وبالتدريج تطور هذا إلى تقاليد القصة الرومانسية الأمريكية ، وفى عملية التطور هذه أضيفت دلالات شعرية أو صوفية إن لم تكن تاريخية تماماً ، جعلت أجزاء من الماضى الأمريكى تحتشد بالمعانى الجديدة . والكثير من قصص إيرفنج الأمريكية تستخدم الماضى أيضاً ، لكنه فى حالة كريون يقتصر تقريباً على الوصف الأدبى للكاتب الأمريكى فى بحثه القيم التى فى الثقافة والتقاليد .

لكن البحث عن ماض ذى معنى يصل باستمرار إلى حد الاجترار ، وربما كان التغير المستمر من أهم خصائص « الكتاب الوصفى » . وأحياناً يقف كريون فى موقف يكاد يسخر فيه من نفسه عندما يتكلم عن شغفه الملح فى « التسكع حول خرائب الحصن لكى يجتر ذكريات البرج الساقط » ولكى يترك نفسه تضيع فى الماضى . وعندما يتأمل آثار الماضى فإنها تذكره عملية التحلل إن عاجلا أو آجلاً . وعندما يفسر كريون المعنى الكامن وراء (باقات الزهور) فى الجنازات ومراسم الدفن الإنجليزية فإنه يدرك إلى أى مدى طبيعى وعميق تمتد جذورها فى

الثقافة بكل ما تحتويه من شعر ورمزية . ولعل هذا المعنى يرضى الأمريكى تماماً . لكن كريون عندما يستوعبه تماماً فإنه يكشف بصراحة عن قلقه الخاص من الموت . إن مراسم الجنازات والشواهد التى تقام للموتى لا تفعل شيئاً سوى أنها تشتت عقل الأحياء إلى حد ما بعيداً عن إدراك حتمية التحلل والاندثار .

ولا عجب فى أن تجميع الزخارف والآثار والتماثيل التذكارية قد أحال ويستمنستر آبى إلى ضريح هائل . كان كريون يجول بمفرده قرب الغسق متأثراً بجلال السكون كما لو كان قد سجن مؤقتاً مع الموتى ، واقتطع فعلاً من الحياة ! كان هناك ركن الشعراء لكن كريون يعرف أيضاً التراب الذى تجمع فوق الكتب المهجورة فى المكتبات القديمة . وبسبب غرامه باكتشاف الدهاليز القوطية المظلمة فإن كريون يبدو أيضاً كشبح مثل نيكربوكر الذى يخوض فى «قمامة السنون» . وإذا كان خوفه الدفين من الأشياء القديمة يعكس شكاً أمريكياً فى أن الماضى لا يعنى شيئاً أساساً بالنسبة للحاضر ، وهو شك يتناقض ويتحد فى الوقت نفسه والرغبة فى الاتحاد بالماضى . ومن الواضح أن تأملات كريون فى تغير الأحوال يعكس إحساس إيرفنج الشخصى بعدم الاستقرار والأمن ، وبعدم الثقة فى مستقبله الوظيفى ، وبالغربة النسبية بصفته أمريكياً فى إنجلترا ، وبحياة العزوبية . وتكشف كراساته فى تلك الفترة عن إحساسه بذاته كروح هائمة أو كسفينة غارقة !

وعلى الرغم من إدراكه لخطر المبالغة فى الانغماس فى الشطحات الحزينة – فإنه يسرف فى الوصف العاطفى فى بعض أجزاء «الكتاب الوصفى» لدرجة لا يحتملها الذوق الحديث بأية حال : يكتب كريون فقرات مطولة عن القلوب الكسير والعذارى اللاتى يمتن من جراء خيبة الأمل فى الحب . وصورة «الأرملة وابنها» تكاد تولول على الأمومة الضائعة . وغالباً ما تطفو أمام مخيلة كريون صور الانهيار الاقتصادى وتدهور البيوت والعائلات . ولا شك فى أن هذا تأكيد سلبى للرغبة التى تطارد هى نفسها إيرفنج للبحث عن البيوت والتقاليد التى يجد فيها كريون إحساساً مؤقتاً بالألفة على الأقل .

وعلى أية حال فإنه من المثير أن نرى أجزاء معينة من الخيال الروائى المحض وهى تقلل من حدة الإسراف العاطفى الذى تميز به «الكتاب الوصفى» تماماً مثلما نجد فى مواجهات كريون العجيبة مع الكتب المهجورة سخرية من تطلعاته الأدبية هو نفسه ، فى حين نجد أن أحلام اليقظة عند جوفرى كريون تقتصر على إخلاص المرأة وفنائها ، وعلى الزوجة كملاك حارس ،

وعلى البيت والزواج كملجأ من تقلبات العالم . وعلى أية حال فإن كتابه لا يحتوى فقط على الصورة المثالية المبالغ فيها للعروس فى اللقطة التى منحها عنوان « الزوجة » بل هناك السيدة فان وينكل المثيرة للضجة أيضاً . إن « ريب فان وينكل » قصة هروب لا واع من زواج سيئ . إنه ينام خارج منزله طوال أفضل عشرين سنة من عمره على صدر تل صغير أخضر فى جبال كاتسكيل ، وأخيراً يستيقظ ريب وقد بلغ به تقدم السن والعجز الجنسى كل مبلغ . لكن على الرغم من الرعب الذى أصابه أول الأمر فإنه يشعر بالحرية بعد أن ماتت زوجته ، وفى الحال يبدو سعيداً ، إذ إن ابنته تستطيع رعايته الآن . ويمكنه أن يعيش حياة التسكع بلا عقاب يقع على عاتقه !

والقصة الأمريكية الأخرى المشهورة « أسطورة البقعة الناعسة » تسخر من أعزب نذر حياته للكتب فى حين أنه يحلم بزواج مريح لا يستطيع تحقيقه لنفسه . وهناك حدوتة أخرى بعنوان « العريس الخائف من المستقبل » تدور حول شاب وفتاة يتحديان بكل قوة وإصرار التعصب الغبى والمدمر الذى يحتفظ به كبرياء العائلة وكرامتها كتقليد مشرف . وأخيراً يبدو « الكتاب الوصفى » بقلم إنسان مسرف فى العاطفة ويسخر من هذا الإسراف فى الوقت نفسه إلى حد ما . إن نظرة إيرفنج الكوميدية مسئولة إلى حد كبير عن نجاح « ريب فان وينكل » و « أسطورة البقعة الناعسة » اللتين تحددان بداية القصة القصيرة كشكل أدبى أصيل مستقل . ومثل هذه القصص مستمدة جزئيًا من الأساطير والحواديت الألمانية التى تمثل نموذجاً آخر لاهتمام إيرفنج بالتراث التقليدى .

وكان سكوت هو المحرك وراء هذه القراءات الألمانية . لكن تظل جذور القصص الأمريكية ضاربة فى أراضى وادى نهر هدسون والعادات المرتبطة به ؛ فهذه تمثل خلفيتها الحقيقية : فبمجرد أن تقيم فيها الشخصيات وتتشرب بيئتها المحلية – فإنها تبدو إنسانية واقعية على الرغم من احتفاظها ببعض السمات الأسطورية إلى حد ما . وتتسبب نغمة إيرفنج التى تتردد بين نصفها الكوميدى ونصفها الحزين فى حيرة القارئ الذى لا يعرف هل يضحك أم يأسى ؟ هل يرفض الشخصيات كأنماط غريبة شاذة أو يقبلها كتلميحات إلى أشياء فى نفسه . ويضيف قيمة من عنده إلى غرابة الشخصيات . ويمنح شخصيات ريب فان وينكل وإيشابود كرين نغمات صوفية خفيفة ؟

إننا نربط ما بين عالم الإحساس وحزن المقابر ورغبة الجيل فى الطواف بالخرائب وبين عصر

جراى وجولد سميث وستيرن ، لكن « الكتاب الوصفى » فى عام ١٨٢٠ منح دفعة فى أمريكا للاستغراق فى هذه العواطف الناعمة ، دفعةً استمرت على الأقل أربعين سنة أخرى . وإذا تتبعنا جوفرى كريون ذلك الأعزب العاطل المستغرق فى أحلام اليقظة فإننا نجد أن شخصيته قد أصبحت من الأنماط الأدبية الشائعة . وقد احتفظت هذه النغمة العاطفية الجزلة بحيويتها فى كتب الهدايا والمطبوعات السنوية التى تتخذ لنفسها من الأدب وجهة براقة وتطبع خصيصاً من أجل النساء على الرغم من أنه من الواضح أن الرجل الأمريكى غير محصن ضد الإسراف فى العاطفة . كانت هناك موجة ذات قلب حنون بعد تلك الفترة من سيطرة الواقع ذى العقل الصارم التى سادت القارة الأمريكية . إن الإقبال المسرف على العاطفة أكد الحاجة القومية إلى التخلص من اللهث الطاحن وراء النجاح والخوف من الفشل والتوتر والقلق الذى لم يعرفه إيرفنج فقط ، بل خبره أيضاً كتاب مثل هوثورن وبو وميلفيل . إن الرعب والتوجس والتطلع الذى يكمن خلف الشخصيات المطاردة فى أعمال هؤلاء الكتاب لا يختلف فى كثير والعواطف التى ولدها الإسراف العاطفى الذى تميز به الأدب الأمريكى فى تلك الفترة .

إن بلاغة إيرفنج الأدبية تشتت بل تبسط إلى حد كبير التوترات التى يقع نظام الزواج ضحيتها من جراء الاقتصاد المتنافس ، لكن صورته المثالية فى لقطة « الزوجة » كانت أقل عاطفية فى حين أنها تمثل قوة مركزية فى أعمال هوثورن . إنها ترمز إلى حاجة الرجل إلى الحب الذى سيخرجه من ذاته ومن العزلة التى فرضها عليه كبرياؤه وطموحه وشراهته . كانت صور البيت ، البيت العذب والمدفأة المتواضعة والمغليون الممتع والزوجة والطفل ، والجردل القديم المصنوع من خشب البلوط ، والكوخ فى الوادى ، والبقعة المعشوشبة الخضراء البعيدة عن طريق التجارة ، والواحة وسط الصحراء ، والجزيرة الخضراء داخل البحر المتوحش – كل هذه الصور تعبر عن رغبة تميز بها الأدب الأمريكى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر سواء كان ذلك فى أسوأ أعماله أو فى أعظمها . لكن فى أعظم أعمال هذا الأدب نجده مغرماً بذلك الرجل الذى يضيع حياته فى التطلع والتشوق ، الذى يرفض أو يعجز عن الاستقرار ، الذى يهجر بيته ، والذى يضيع سنوات نضجه فى بحث منفرد عن أشياء لا طائل من ورائها ، أو الذى ينسحب ببساطة من الحياة ، أو الذى يدمر منزله وضيعته أو زوجته ، وفى النهاية يقوم بتدمير نفسه ! وتعد هذه الشخصية المركبة الغريبة جزءاً من التركة التى خلفها كريون وريب فان وينكل وإيشابودكربن وحفنة أخرى من الشخصيات التى تتابعت فى قصص واشنطون إيرفنج المتتالية .